

اجتهادات التنوير .. والديمقراطية

اطلعت فى الأيام الماضية على مقالتين يستغرب كاتباهما دفاع مفكرين فى عصر التنوير الأوروبى عن الدكتاتورية، ويسخر أحدهما من التناقض بين ما يرى أنها صورة رُسمت للمفكر الفرنسى فولتير ويبدو فيها من أنبياء الحرية، ودفاعه عن الملك لويس الرابع عشر أحد أكثر ملوك أوروبا استبدادًا فى تلك المرحلة. غير أنه لا محل لهذا الاستغراب، وما يقترن به من سخرية، حين نعرف أنه باستثناء مونتسكيو لم يكن رواد التنوير الأوروبى فى القرن الثامن عشر مهومين بالمسألة الديمقراطية، بل بتحرير العقل والتفكير والإبداع العلمى والفكرى. لم تكن حرية النشاط السياسى ضمن أولويات التنويريين الأوروبيين، الذين كان تناقضهم الرئيس مع الكنيسة ومؤسساتها، وليس مع سلطة الحكم. كانت هذه طبيعة المرحلة فى أوروبا فى القرن الثامن عشر. فقد تطلع التنويريون إلى دور تمنوه للسلطة السياسية فى مواجهة هيمنة الكنيسة على عقول الناس. وكان تصورهم أن تحجيم الكنيسة هو الشرط الأول للتحرر، وأنه سيوفر مساحات من الحرية حتى قى ظل حكومات مستبدة. واستخدم بعضهم، مثل فولتير، مصطلح الاستبداد المستتير، وكان بين من راهنوا على هذا الاستبداد ثم خسروا رهانهم. لم يكن كتاب الملك الشمس فى مديح لويس الرابع عشر العمل الوحيد الذى كتبه فولتير فى سياق البحث عن الاستبداد المستتير، أو الحلم به. فقد وضع كتابًا عن تاريخ قيصر روسيا بطرس الأكبر تضمن إشادة بمناقبه، بعد أن خاب أمله فى فريدريك ملك بروسيا الذى قرّبه، ودعاه للانضمام إلى محكمة بوتسدام. ولكن

فولتير وجد نفسه عاجزاً عن إبداء أى رأى فيها أمام ملك رأى نفسه
فيلسوفاً ينصح ولا يُنصح، فغادر بروسيا مُحبطاً. لم يكن فولتير مدهناً، بل
حالمٌ بدور الملوك فى مواجهة طغيان الكنيسة، مثله فى ذلك مثل دنيس
ديدرو الذى لم يقبل مالاَ عرضته عليه الإمبراطورة الروسية كاترين, وهو
فى أشد الحاجة إليه، وطلب منها أن تشتري مكتبته الضخمة مع السماح
له باستخدامها فى حياته، واستثمر الفرصة فقدم لها خطة عمل تنويرية
تجاهلتها فخاب أمله فى الاستبداد المستتير، مثلما أُحبط حلم فولتير به.